kitabweb-2013.forumaroc.net

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية

البينة

مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحررة

السنة الاولى
العـــدد الاول

مايـــو 1962
ثمن العدد : درهم

البينة

مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحررة

الفنّ المغربي قبل التّاريخ

بقلم : عبد العزيز بنعبد الله
استاذ محاضر في التاريخ والفن بكلية الآداب

لقد اضطر الانسان في عصور ما قبل التاريخ الى الالتجاء للكهوف المنحوتة في صخور الجبال ، وما زلنا نشاهد الى الآن في منحدرات الاطلس ، بعض المغاور العتيقة المتهدمة . وقد كانت هذه المآوى الطبيعية مركز حياة نشيطة كما تشهد بذلك بقايا الادوات الغريبة وعظام الانسان والحيوان ، الذين عاشا في هذه الكهوف ، والذين القت تلك المكتشفات ضوءا على اساليب عيشهما .

لقد اختار الانسان الاول ـ كفالة لامنه وطمانينته ـ هذه المخابئ السامقة في قمم الجبال ، فرارا من الضواري المفترسة . وتوجد الى الآن في هضاب تادلة كهوف تحتوى على غرف منحوتة في الحجر الصلد ينفذ اليها النور من خلال كوات واسعة غير ان الاوانى والآلات التي عثر عليها تختلف اشد الاختلاف عن الأثاث البربري الحالي ، ولكن تنم عن شعور فني يزداد وضوحا في الصور المنقوشة على الصخور .

الفن في مرحلته الطبيعية

ومن ابرز هذه الرسوم (كبش زناكة)(Bélier de Znaga) المكتشف في فكيك ، والذى يعطينا صورة عن الفن المغربي قبل التاريخ في مرحلته الطبيعية (اى تصوير المناظر الطبيعية) التي عقبتها مراحل ادت الى ما نشاهده اليوم

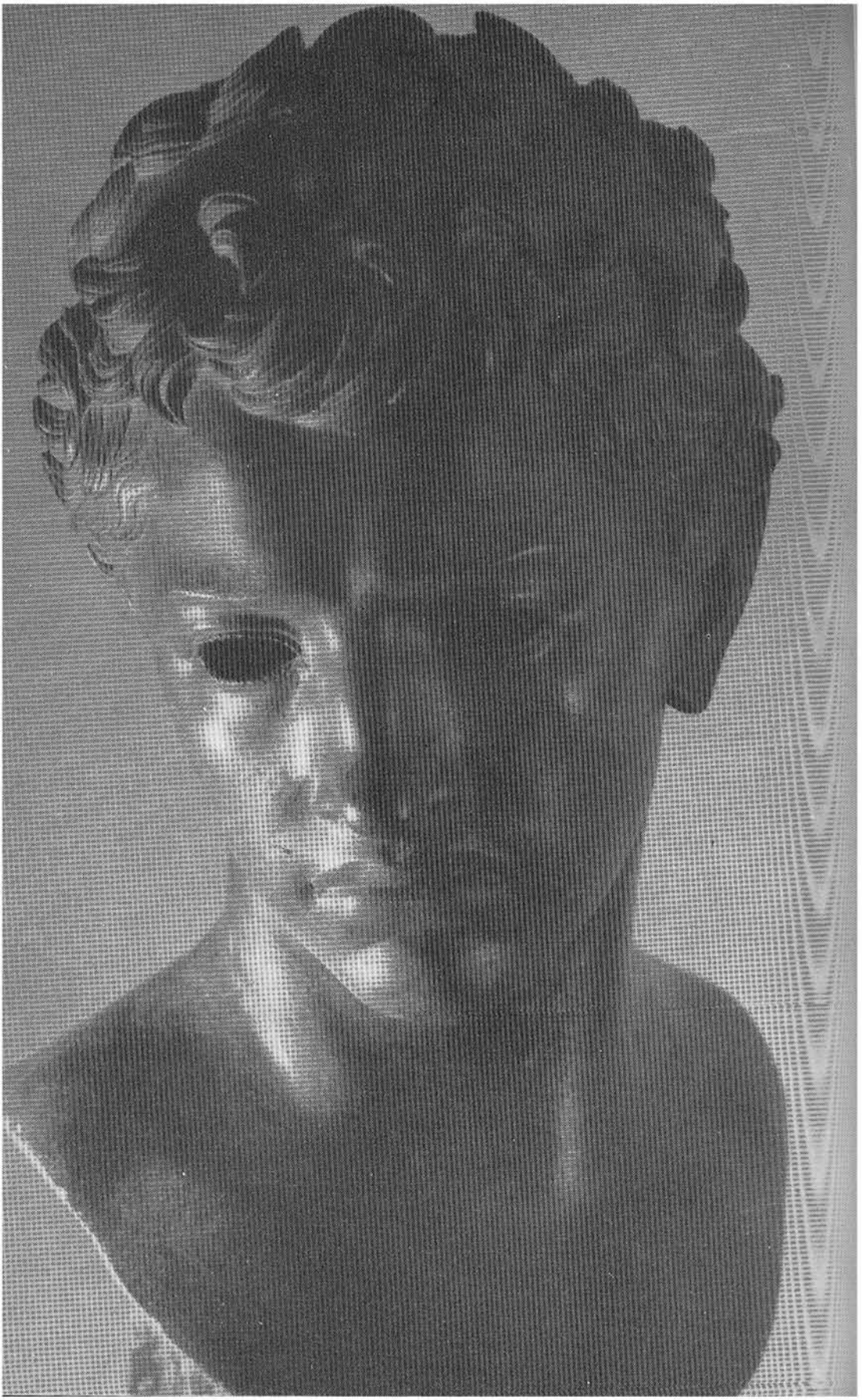

قصر فرعون : صورة يوبا الثانى من البرونز وهو ملك موريطانيا (مقاطعة فى افريقيا الشمالية قسمها الرومان الى موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية موزعة بين تونس والجزائر والمغرب) توفى عام 18 م. وهو كاتب له مصنفات فى التاريخ باللغة الاغريقية

من نقوش حيوانية فى الهندسة المعمارية البربرية . وتوجد ثلاثة آلاف وخمسمائة صورة منحوتة على الصخر فى الاطلس الكبير. ومما يساعد على تحديد تاريخ نحتها وجود صور لحراب ورماح – من النوع المعروف فى عصر البرونز الثانى باوربا – كاسبانيا والبرتغال وبروطانيا وايرلندا وايكوسيا ، وهى قريبة الشبه بأسلحة جنوب شرق اسبانيا ، وبذلك يمكن ضبط تاريخها بالنصف الثانى من الالف الثانية ، وتوجد منها نحو الثلاثين فى جبل اوكايميدن وياكور .

ومن بين الصور الانسانية المكتشفة فى الاطلس الكبير توجد اربع تلفت النظر ، احدها شخص مسلح بخنجر ويحمل أربعة اسورة على الاقل علاوة على نحو 14 الى 17 من السمات البارزة الواضحة منها اربع حول العنق واربع على الصدر . والشخص الثانى بقبعته وحذائه وهراوة فى اليد اليمنى وخنجرين فى العضد الايسر. اما الرجل الثالث قسماته غامضة ويظهر ان عصى ماثلة الاثر فوق رأسه . وما زالت معالم الرجل الرابع بارزة ، منها ذكره وحربته وخنجر فوق رأسه ويلاحظ ان الشخصين الاول والثالث يوجدان فى اوكايمدن والآخرين فى ياكور (عزيب نكيس وفيف كاكين) ويتأكد ان اثنين منهم من المحاربين .

مع التطور الحضارى

ولكن منذ هذا العصر بدأ البرابرة يتجمعون فى دساكر ، فى شكل خيام واخصاص . شاهد منها الرومانيون المآت عندما دخلوا الى المغرب فاطلقوا عليها اسم (كاسطيلا) (Castella) اما المدن فانها لم تظهر الا مع دخول الفنيقيين .

الا أنه لا يمكن ان نحدد بوضوح الفترة الانتقالية بين عصر الكهوف وبين العهد الذى اضطر فيه الرعاة الرحالون الى اتخاذ خيام ينقلونها على ظهر عربات خشبية لانتجاع الكلأ فى الجهات الخصبة .

هياكل الانسان

وقد اسفرت الحفريات عن نتائج القت بعض الضوء على عدة عناصر كانت غامضة فى هذه المرحلة من تاريخ المغرب . ففى عام 1933 عثر احد حراس مصلحة الآثار القديمة بالرباط على جزء من فك اسفل بشرى . وفى عام 1936 عثر فى منجم القبيبات بالرباط على بقايا انسان قديم . وهذا المنجم عبارة عن

نجد رملي تستخلص منه الاحجار المنجورة ، وهو واقع بين طبقتين اثنتين من العصر الجيولوجي الرابع القديم . الا ان دراسة بعض أجزاء هذا الهيكل كادت تسفر عن كون انسان الدار البيضاء يمكن أن يكون أقدم منه .

ويستفاد من الحفريات الممارسة بالرباط ان مصب وادي ابي رقراق كان يصل الى نقطة جنوبية ابعد من مسيله الحالي .

اما اجزاء الهيكل الرباطي فانها تدل على مناعة جسمانية ودراسة عناصر الفك الاسفل تبرز خصائص عادة في الانسان الحالي ولكن شبيهة بخصائص المكتشف في نياندرطال (Neandertal) (I) قرب نهر الراين بالمانيا. وتلاحظ نفس الخصائص في الهيكل الموجود في تمارة وسيدي عبد الرحمان . اما الاسنان فانها تثير الانتباه بضخامتها التي تتجاوز ضخامة اسنان الاسنان الاوربي اليوم ويمتاز انسان الرباط بوجود نتوء بارز في اضراسه السفلى ومجموخ مقاطعه ولم يلاحظ ذلك حتى لدى انسان (النياندرطال)

وهكذا فان انسان الرباط يعتبر من هذه الحيثيات اقدم هيكل في المغرب، لان الهياكل الموجودة في تمارة وسيدي عبد الرحمان وطنجة اكثر تطورا منه وهذه الخاصية تضفي عليه طابعا استثنائيا في ميدان تحديد الفوج الاول من سكان البشر بالمغرب .

وقد اسفرت التنقيبات كذلك عن وجود هياكل فيلة قديمة بافريقيا الشمالية . وقد اسفر البحث عام 1952 عن كشف بقايا فيل قرب الدار البيضاء. وتشبه اضراس هذا الفيل اضراس الفيل المكتشف في سيدي عبد الرحمان وقسنطينة مما يدل على ان الشكل واحد في جميع هذه المناطق ويدل ايضا على ان الفيل الاطلنطيقي هو كقريبة الفيل الافريقي من الانواع التي تعيش في البطاح والسباسب .

(I) عرف التاريخ القديم اربعة اجناس للانسان :

اولا – الجنس الذي عاش بافريقيا الوسطى قبل المسيح بـ 600 000 سنة وعثر على اثار هذا الجنس عام 1925 بافريقيا الوسطى .

ثانيا – الجنس الذي عاش قبل المسيح بـ 300 000 سنة وعثر الاستاذ دوبوا على اثاره بجزيرة جاوة سنة 1892 .

ثالثا – الجنس النياندرطال الذي عاش قبل المسيح بـ 100 000 سنة وعثر الاستاذ فوبروط على اثاره بمدينة دوسالدورف بالمانيا .

رابعا – الجنس الهوموسابيان الذي عاش قبل المسيح بـ 40 000 سنة عثر على اثاره سنة 1686 بفرنسا .

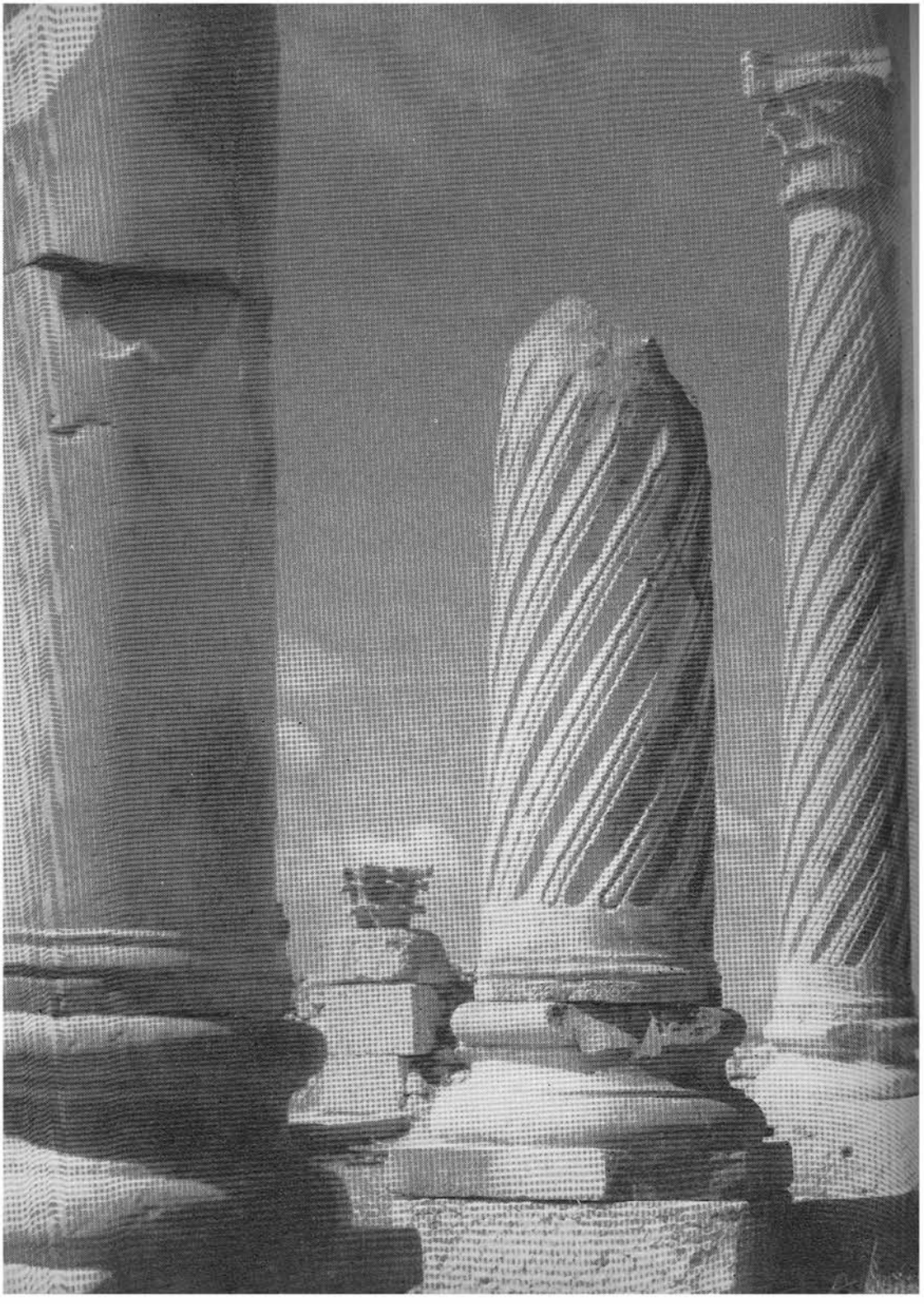

قصر فرعون : الدار ذات السوارى

آثـار صنـاعيـة

أما في الميدان الصناعي فمنذ سنة 1949 اثار علماء الآثار الانتباه الى امكان وجود صنائع قديمة جدا بافريقيا الشمالية ، وقد عثر بالمغرب على عدة ادوات تؤكد هذه النظرية ، ففي احد مناجم الدار البيضاء وقـع الكشف عـن حصيات ذات بريق تناولها قديمة العهد · وعثر منذ عام 1941 عـلى حصيـات شبيهة بهذه في منجم سيدى عبد الرحمان قرب آنفا · وترجع الى نفس العهد التاريخي المخلفات الحجرية الموجودة في سوق الاربعاء وعرباوة وغابة المعمورة (نوع احمر اللون) واحواز الرباط (مجموعة من الحصيات المنجورة) قرب دوار الـــدوم ·

ومهما يكن تنوع مناطق هذه المناجم فانها تعتبر أقدم صناعة معـروفة بالمغرب وان وجود الآت مختصة بين هذه المصنوعات يبشر بامكـان الكشف عن بقايا مصنوعات أعرق فـي القـدم ·

وعثر كذلك على مناجم في نجود مدينة سلا ، استخلصت منهـا صخور ضخمة (متران الى ثلاثة امتار) · ويوجد نفس النوع في شالة ومطار الرباط مع تنوع اكثر في اطوال القطع واختلاف المواد الاولية · اما فـي العصـور التاريخية فان البرابرة اقاموا لحفظ ثرواتهم نوعا من «القصور» او الحصون اسندوا حراستها لرجال مسلحين ، واحيانا ابراجا على قمم الجبـال لايـداع العتاد والمال والمؤن وكانوا يلبسون اول الامر مخيطات بسيطة تستر العورة ثم جلود الحيوان تقيه من البرد القارس ، ثم الجبة الصوفيـة ثم اكسية اشبه بالبرانس مع تزيين رؤوسهم احيانا باكاليل من الريش .

والسلاح كان يصنع من الحجارة في العهد الحجرى الذى امتد طويـلا في القارة الافريقية حيث لم يعرف الناس منذ العصور الاولى معادن الحديـد والبرونز ـ والنحاس ـ ثم استعمل البربر الحراب فالاقواس فالخناجر وكانت درقات الدفاع تصنع من جلد الفيلة · وهذه الاسلحة وكذلك الآلات الاخرى كانت تنقش اولا بالاظافر ، ثم بأسنة حجرية ، ثـم اسنة متخذة مـن اطراف العظام المحددة وتطور صنع الاسنة الى نوع اشبه باسنان المناشير.

وكان البرابرة بالاضافة الى مايصنعونه من انواع المجوهرات يرسمون على الحجارة صورة تمثل حياتهم اليومية ، ويتحلون نساء ورجالا بالاسـورة والعقود ، وينفرد الذكور بالاقراط ، والنساء بالخلاخل · وكانت الاوانى كلها

خزفية . والمرأة فنانة تتولى نقش مختلف الاوعية كما تتكفل بنسج الزرابى. وكان الموتى يدفنون فى مغاور طبيعية ، ثم صاروا يوضعون فى كهوف مربعة او مستطيلة تنحت فى الجبال وتحشر فيها جثث متعددة ، بعد ثنيها وكسر عظامها · ولكن منذ القرن الثالث الميلادى صار بعض المغاربة يحرقون موتاهم كاليونانيين والقرطاجنيين ، كما تعودوا صبغ الموتى وايداع الحلى والاثاث مع مالكها فى مرقده الاخير · وتعتبر ناحية تافيلالت من بيـن النواحى الغنيـة بالمقابر التى يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام ، فقد عثر عام 1938 على ما سمى بمقبرة ارفود الواقعة على الضفة اليسرى (لوادى زيز) حيث وقع العثور على نحو 1200 حجرة لتبليط الاضرحة ، وقد تم الكشف فى اثنتين منها عن عظام بشرية ما زال من السهل التعرف الى هويتها ·

وكان الفن البربرى يستمد من الاشكال الهندسية ـ زيادة على بعض الرسوم الطبيعية ـ ولكن قلما كان يستعمل الاقواس والحنايا وانما همـــا خطوط وتعاريج..

واروع ما فى هذا الفن حيويته واصالته مما ساعده على الصمود فى وجه تأثيرات الرومان والاسبان، واقل ما يمكن ان نستخلصه من هذا هو ان وفرة الاثاث والاسلحة لدى المغاربة منذ عصور ما قبل التاريخ تنم عن تدفق حياة اجتماعية لا بأس بهـا ·

بعد الفنيقيين ثـم الـرومان

أما فى العصور التالية فقد اسس الفينيقيون قرطاجنة بافريقية اواخر القرن التاسع قبل الميلاد وفى منتصف القرن الخامس اجتاز هانون بدوافـع تجارية اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) على ظهر ستين مركبا واقام على طول سواحل المغرب سبعة مراكز، احدها فى مصب الساقية الحمراء. ولعل هذه الاقامة ـ القرطاجنية العابرة تركت آثارها ، اذا اعتبرنا بعض المظاهر المشتركة فى الحضارتين البونيقية والمغربية . فالطابع القرطاجنى ما زال يسم صناعة المعادن والجلد والخزف المذهـب والاصباغ والنسـج والالآت الفلاحيـة والبحرية · ويرى المؤرخ كوتى ان الثياب البونيقية كانت شرقية بقميصها الطويل ذى الاكمام العريضة وطربوشها وكساء السفر الذى يشبه الكندوره (الفوقية الفاسية) بل وحتى البـرنس الحـالى (1) والاعـــراف

(1) تاريـخ افريقيـا الشماليـة ص 92

رسوم وصور منحوتة في صخور جبل اوكايدمدن يرجع تاريخها الى العهد البربرى

القرطاجنية نفسها كانت شرقيـة . فمن ذلك تعدد الزوجـات وانواع الحلى النسوى وشكلية الاجداث والشواهد وحركة السجود وتحظير اكل الخنزير والخمسة (اواليد) ... الخ وقد تساءل المؤرخ كزيل : هل استمرار معالم الحضارة البونيقية بالمغرب هو الذى ساعد على انتشار اللغة العربية الغربية من البونيقيه بين البربر مؤكدا ان قرطاجنة قد هيأتهم مـن بعيد الى تقبـل القرآن ككتاب مقدس وكدستـور ..

وقد خلفت قرطاجنة هذه حاضرة روما التى بسطت سيطرتها على افريقيا طوال سبعة قرون (من القرن الثانى قبل الميلاد الى القرن الخامس بعـد ازدياد المسيح) .

وقد كان اقليم النفوذ الرومانى فىموريطانيا الطنجية (ابتداء من عام 42) يشكل قطعة صغيرة تمر حدودها جنوبى الرباط من المحيط الاطلنطيقى الى ملتقى وادى ابى اقراق وعكراش اما فى شرق المغرب فان الآثار الباقيةتحمل على الظن بان هذه الحدود امتدت الى الاطلس الاوسط جنوبى مكناس وفاس وبذلك تكون منطقة الاحتلال الرومانية عبارة عن مثلث بين سبتة والربـاط وفاس تندرج فيه طنجة كعاصمة بعد قصر فرعون (وليلى)

والغالب ان طنجة كانت اعظم مدينة فى الجزء المغربى المحتل من طرف الرومان وما زالت المدينة تحتفظ ـ كشاهد على الاستيطان الرومانى ـ بانقاض كنيسة لم يبق منها سوى تصميمها اما الآثار الاخرى المحفوظة فانها لاتعد بعض الكتابات والنقود والمنتجات الفنية مع تمثال امرأة .

آثـــار وليلـى

وقصر فرعون عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل ولكن غير منتظمـة المساحة (يتراوح طولها وعرضها بين 700 متر الى ما بين 300 و 500 متر) تتدرج بناياتها في سفح جبل زرهـون حيث ضريح المـولى ادريس الاول . ونظرا لانعدام وثائق تكشف عن وضع هذه المدينة التاريخية، فان مصلحة الآثار القديمة تعمل على تجديد معالم هذه المدينـة التى هى اعظـم حاضرة رومانية فى الاقليم الداخلي بفضل الحفريات التى كشفت عن قوس كاراكالا (1) او قوس النصر وعن ازقة ودور ومعاصر للزيتون . وقـد عثر عـلى

---

(1) امبراطور رومانى نجل سبتيم سيفير (Septime) ولد فى اليون عام 188م وتولى الملك بين 211 و 217 م . (Sévère)

الساحة المركزية للمدينة بكنيستها ، وازيحت الانقاض عن بدائع فنيةرائعة منها كلب من البرونز (وهى قطعة مقتبسة عن الاصل اليونانى المنحوت فى القرن الخامس قبل الميلاد) ورأس مصنوع من المرمر ونقوش بديعة تمثل صورا حيوانية وانسانية فى قالب فسيفساء . وكانت الساحة الداخلية المحاطة بالاروقة هى القلب النابض للحياة العمومية فى المدينة ، ويقوم فى جانبها الغربى حى لا شك انه امتداد لدسكرة اهلية ، كما توجد شرقى قوس النصر شبكة واسعة من الدور الثرية بقاعات استقبالها الواسعة وباحاتها المحاطة بالغرف على النمط المغربى . وقد عثر على بقايا قنوات كانت تحمل المياه من زرهون الى سقايات المدينة وحماماتها او الاحواض المنبثقة داخل المنازل اما الزخرف داخل البيوت فان نقوشه تشكل احيانا دوائر ناتئة رائعة او نحوتا مفرغة علاوة على الرسوم الزهرية فى الحجارة والتسطيرات الهندسية ذات الطابع البربرى ورؤوس الاساطين البسيطة والمزخرفة بصور نورية عريضة الاوراق جميلة التقاسيم وتماثيل ودمى واثاث من البرونز تشكل مجموعة فنية ثرية نادرة المثال .

مدن اثرية

وتوجد انقاض مدينة باناسة (Banassa) الرومانية على الضفة الجنوبية لنهر سبو ، وهى تحتوى ايضا عى ساحة مركزية ودور كبرى جميلة ومستحمات تتجلى روعة مبانيها الاصلية فى قطع البرونز الفنية التى عثر عليها .

اما تومسيدة (Thamusida) الواقعة كذلك على نهر سبو على بعد ستة عشر كلمتر من القنيطرة ، فان بقاياها المعمارية اقل روعة وجمالا من بناسة وقد تم الكشف في شالة عن قسم من الساحة المركزية (Forum) التى تنتهى غربا بقوس نصر وبقلعة رومانية وعمارتين جنوبا وشمالا . كما كشف فى الجنوب الشرقى للساحة عن آثار دور رومانية وعن مقبرة فى المكان الذى يقوم عليه مقر السفارةالفرنسية الان. ولم يعثر على حمامات ولا على اشياء فنية باستثناء كتابات جميلة تلقى بعض الضوء على الحياة الرومانية فى هذه المدينة العتيقة الا ان الحفريات الاخيرة ازاحت التراب فى السنة الفارطة عن ثلاثة من التماثيل ما زالت تحت الدرس .

ومن المدن الاثرية الهامة ليكسوس الواقعة على مسافة اربعة كلم شمالى

منظر من ءاثار لوكسوس وهى اول مدينة بناها القرطاجنيون بالمغرب منذ ثلاثة آلاف عام

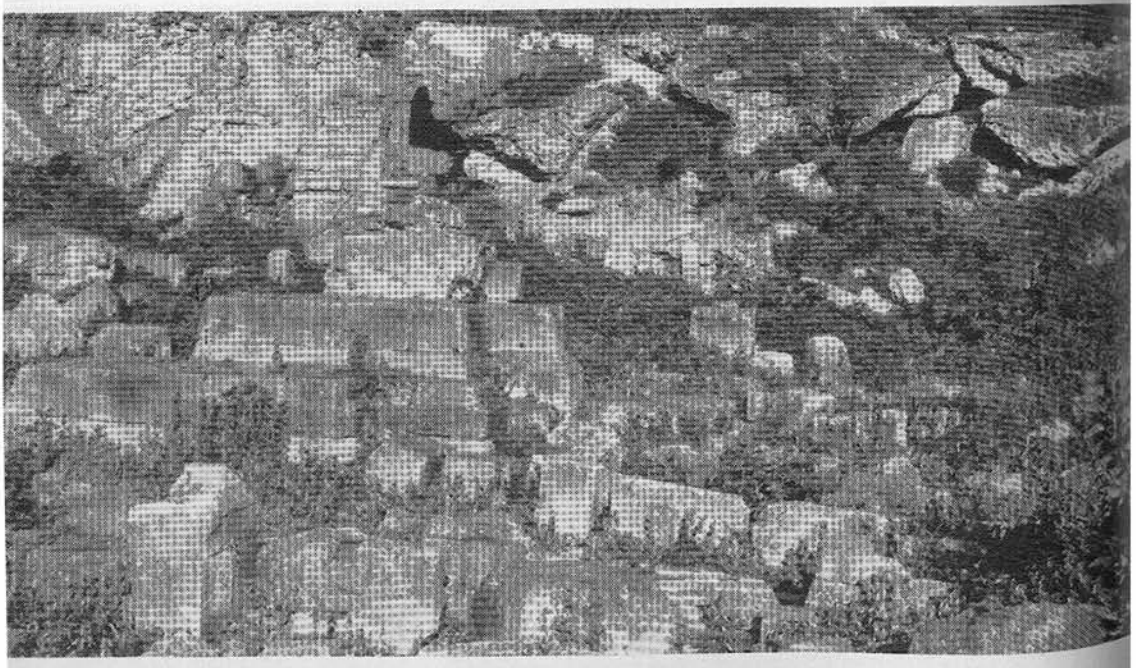

مظهر من بقايا ءاثار شالة

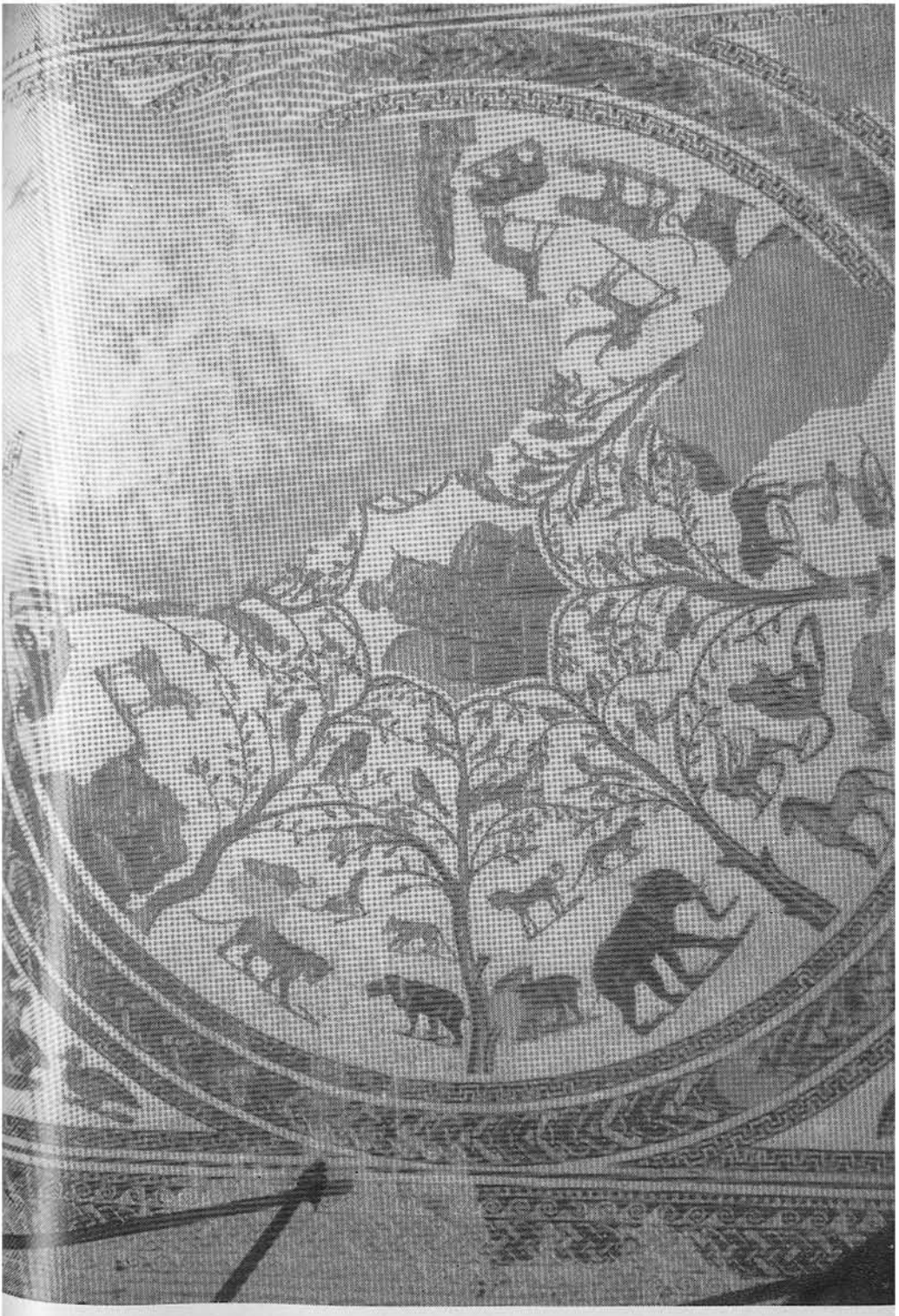

قصر وليلى : نموذج من رسوم الفسيفساء الرومانية

العرائش ، وعلى الضفة اليمنى لنهر لوكوس وهى فنيقية الاصل (القرن السادس قبل الميلاد) احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل . وهى معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس او « تشمس » التى يقال بأن حدائق هيسبير يدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها فى الجزر الخالدات وهى الجزر السعيدة السبع التى اكتشفها الاسبان فى القرن الخامس عشر . ويرى علماء الاثار ان هذه المدينة تحتوى على كنوز فنية لاتقدر . لذلك تولى وزارة التربية الوطنية هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة الآن . وقد عثر على البناء الفينيقى فى الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الرومانى على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ، ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه اما النماذج الاثرية القديمة فهى اوان من الفخار تطور صنعها فدهنت ايام الفينيقيين باللون الاحمر ، وكذلك قناديل منوعة كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوى على غرف مستطيلة كالغرف المغربية الحالية وارضها مبلطة بالفسيفساء المرمرى . وهذه المدينة التى تنقسم الى عدة احياء كل حى بسوره الخاص تعتبر (هى ومدينة شالة) الوحيدتين الواقعتين فى مركز بحرى هام وكانت مستودعاتها الغنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت .

وقد عثر على مدن ازلية اخرى مكان سبتة والقصر الكبير (اوبيدوم نوفوم) وتمودة (على بعد ستة كلم ونصف من تطوان) واصيلا وفريداى (على مسافة كيلومترين اثنين من عرباوة) وتريمولى (فى المكان الذى كانت تقوم البصرة في القرن الرابع الهجرى) .

وقد لاحظ تيسو (I) ان مدينة القصر الكبير مبنية فى معظمها بادوات ازلية العهد وتوجد على احدى قواعد منارة الجامع الكبير كتابة اكتشفت منذ عام 1871 م وهى تشهد بوجود ضريح فى ذلك المكان .

وقد ظلت اهم هذه المدن قائمة الذات فى القرن الخامس الميلادى بعد انسحاب الرومان وكان بعضها يمثل فى القرن الرابع ابرز حواضر المغرب الاسلامى (2) .

(I) كتاب الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجية ص 162

(2) تاريخ المغرب ـ طيراس ج I ص 61 ـ البيان المغرب ج1 ص 133 و 330